# مقدمات فى المنهج : بين اللياقة المنهجية وفاعلية المنهج

لا أدرى لماذا كان هذا البحث - بعد طيلة أكثر من ثلاثين عامًا أمارس فيها البحث العلمى - دافعًا لى لأتساءل حوله تساؤلات مبدئية : ما هى وظيفة البحث والباحث ؟ ما علاقة التنظير بإصلاح المجتمعات ؟! وكيف يمكن دراسة موضوع مثل المواطنة ؟

أسئلة تواردت على ذهنى حينما كُلفت ببحث عن المواطنة، وبدا أن البعض يتوقع منى دراسة على نسق معين يكون مدخلى فيها العلمانية، والبعض الآخر توقع أن أبحث فى مشكلات الأقباط والمواطنة، وآخرون ربما رأوا أن قضية الهوية والمدخل منها هى الأنسب. ولا بأس من إشارة البعض علىّ بدراسة الدستور، وملاحظة تقارير التنمية البشرية، والتنمية الإنسانية العربية[1]. كل هؤلاء توقعوا أن تمارس نفس الرطانة العلمية والبحثية الأكاديمية، وربما أشاروا من طرف خفى إلى الإجراءات البحثية والمنهجية المتعارف عليها وورثناها، والعودة إلى مصادر بعينها لا نغادرها، وأجندة بحثية وموضوعات صار الخروج عنها وعليها مروقًا، والتعديل بها أو الاعتراض على مسارها هرطقة بحثية وزندقة علمية.

فطفقت أستكشف مصادر أشاروا بها، وأدوات مستبطنة فيها، ومناهج اهتممت بفحصها، إلا أننى شعرت - وبشكل كبير- بأن استجابة كل ذلك كانت قليلة وربما كليلة. وشعرت أن بعض ما أردت أن أبدأ به فى عملية التنظير من بيان مفاهيم والتمييز فيما بينها أمور تستر الظاهرة ولا تجليها. نحن أمام ظواهر ثلاث، وعوامل تمثلها: الدولة، الدين، المواطنة. الدولة المتغير الأساسى، والدين متغير علاقة، والمواطنة وَسَطٌ لبحث العلاقة. عملية أظنها معقدة. إن كل واحد منها يعانى من غموض فى التطبيق، خصوصًا حينما يكون مجال الدراسة مصر.

ثم خطر فى ذهنى أن الباحث مهمته الجلاء والبيان، والفحص والتحقيق، فما بال

هذا البحث كلما اقتربت منه بما هو متعارف عليه لا يستجيب ولا يحقق مبادئ تتعلق باللياقة المنهجية وفاعلية المنهج ؟!

وبدا لى أنه من الضرورى قراءة المجتمع كنص[٢] : نص الإدراكات، ونص المفاهيم، ونص الخطابات، ونص السياسات، ونص المؤسسات، وأخيراً نص بشبكة العلاقات على تنوع مستوياتها وتعدد أطرافها . . وأن قراءة النص المجتمعى يمكن أن تعكسه مصادر غير تقليدية ومادة معلومات مختلفة، يغلب على معظمها فكرة «اللقطات» من خلال حادثات تبدو فردية، ولكنها بالنظر العميق غير ذلك، وبالنظر الدقيق فهى إن لم تمثل ظاهرة فإنها تؤشر عليها، وهى لقطات كالبؤرة المجمعة للصورة والعدسة اللامة للحدث وبلُّورته . (انظر الأشكال ١ ، ٢ ، ٣) .

قد يقول البعض : إنها أحداث فردية . ولكن المواطنة تشير إلى نماذج تكرارية داخل نص المجتمع، وهذه الأحداث تعد أحداثًا كاشفة وفارقة على فرديتها، قد لا يماثلها حتى لو قام الباحث ببحث ميدانى مع اتساع مساحته أو عينته .

نعم قلت إن الأمر فى بحث المواطنة لا يحتمل تلك الرطانة المعتادة التى تستر حال المواطن والمواطنة أكثر مما تكشفهما . كيف نبحث إذن عن الزحف، وممارسات الدولة فيه، وتأميم الدولة لمساحات الدين؟ وكيف نبحث عن حال المواطن فى كل هذا؟! كيف تمارس هذه الأمور ضمن فكرة «المعرض» التى أشار إليها «تيمونى ميتشيل» فى كتابه «استعمار مصر»، حينما يشير إلى أن الدولة القوية قد لا تكون ورثت الدولة فى الغرب، بل ورثت بنية الاستعمار التنظيمية والنظامية، وهذه مفارقه جعلت الدولة فى فاعليتها الاحتكارية لا قدرة لها على استيعاب عناصر الإرادات المتعددة والقوى المتجددة من عنف، وكل الأمور التى تشير إلى استيعاب الصيغ التقليدية والصيغ الحديثة فى التعددية السياسية .

فكرة المعرض فكرة رئيسية يستكشف - من خلالها ميتشيل - المناهج الخاصة للنظام والحقيقة . . هو عام يبدو كل شىء فيه منظمًا ومرتبًا كما لو كان شيئًا معروضًا أمام مراقب، يترافق معه تمثيل واقع خارجى[٣] .

لا يشير الاستعمار فى حركة المعرض إلى مجرد واقع وجود استعمارى أوروبى بل إلى تطور مناهج جديدة للسلطة السياسية، ويبين الكتاب أن هذه المناهج الاستعمارية

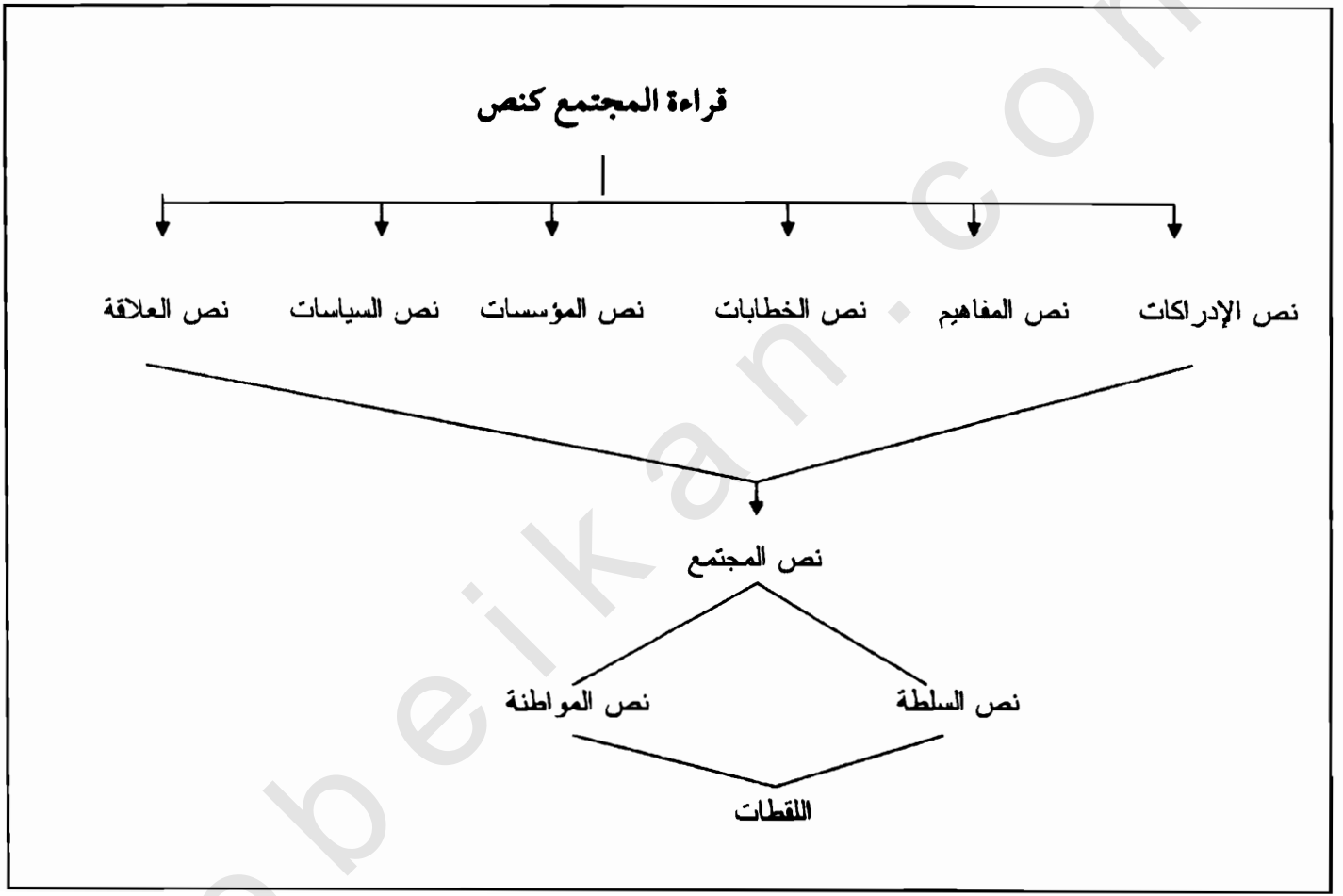


شكل رقم (١)

obeikan.com

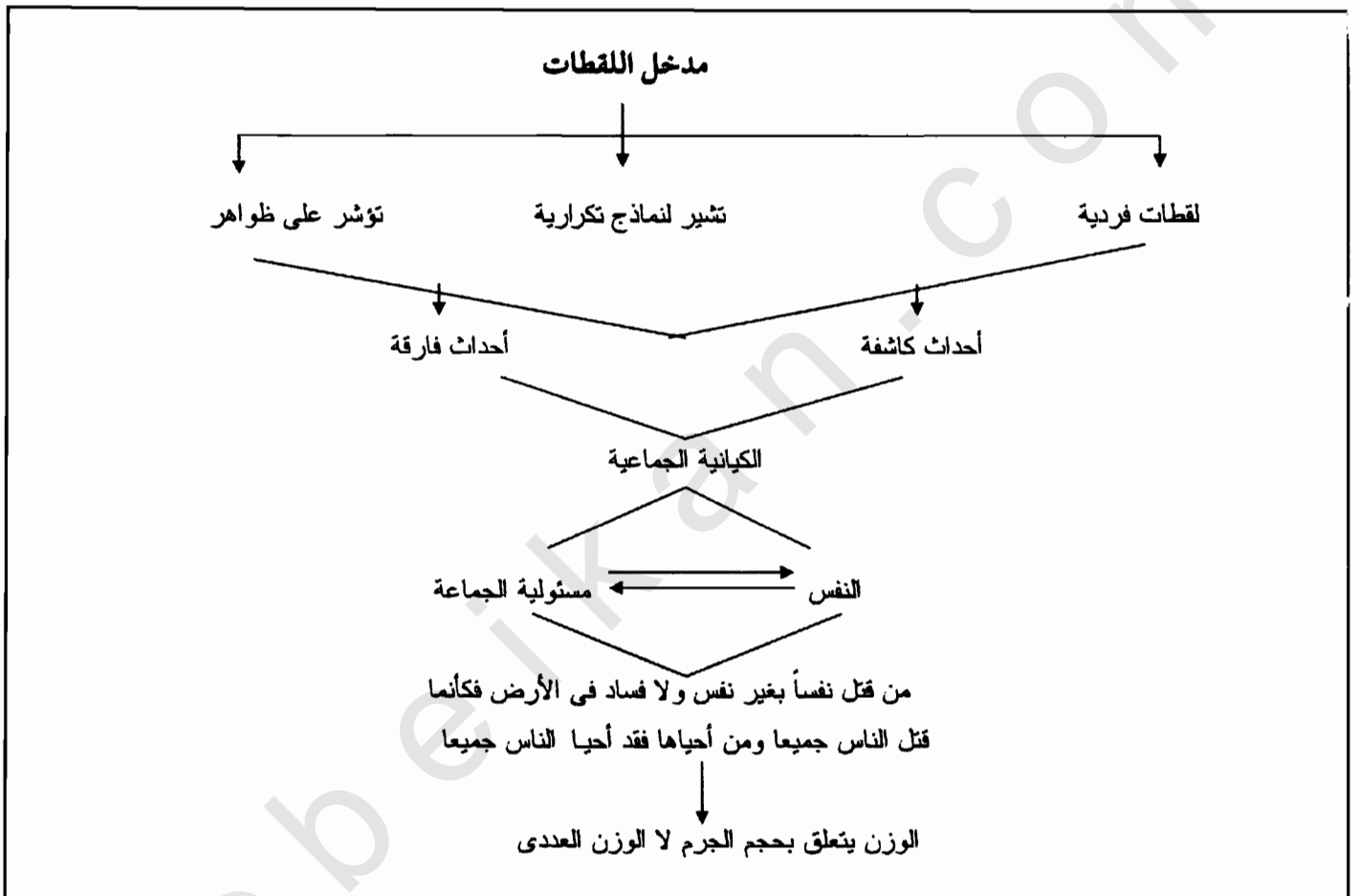


شكل رقم (٢)

obeikan.com

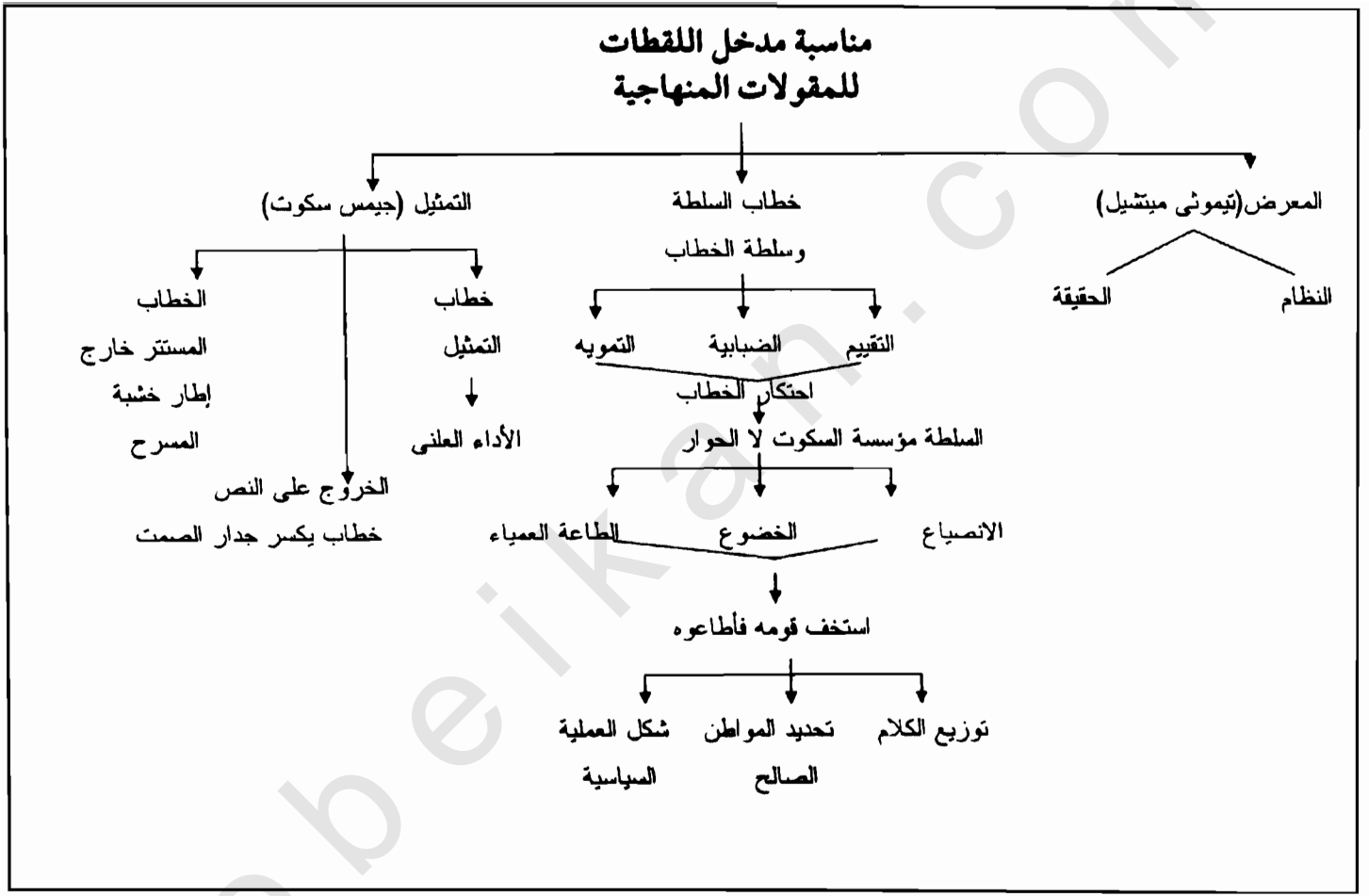


شكل رقم (٣)



obeikan.com

هى جوهر كل سلطة سياسية حديثة، ويقوم الكتاب على تحليل لطبيعة هذا النوع الجديد من السلطة ... إن جميع التحولات الاستعمارية التى يعد بها إدخال «النظام» و«المعنى» كان فى الوقت نفسه مجالات لخلق هذا الواقع الجديد للسلطة[٤].

إن إعطاء مفهوم للسلطة ربما سيكون أكثر سلطوية؛ لأنه سيدعى لا محالة أنه القويم والسليم، وبذلك سيضمن بل ويمارس قهرًا ملحوظًا. فالتعريف ليس فقط هو تحديد العلاقات بين الدال والمدلول، وإنما هو فرض المفاهيم على الأشياء، وحينما نقول إن المفاهيم تُبنى على الأرض لا نغادر الحقيقة[٥].

**خطاب السلطة ونصوصها**: لا يشكل الوضوح الهدف الأساسى للخطاب بل على العكس يسعى إلى تعتيم وتضبيب الرسالة عن طريق خلق الصيغ اللغوية المضادة والملتبسة من أجل قطع الطريق على كل جدل عقلى أو معارضة منطقية؛ وذلك لأن هدفه الرئيسى ليس الإقناع والمجادلة وإنما الانصياع والخضوع والطاعة العمياء لصالح المتكلم.. فخطاب السلطة شامل ونهائى ولا يحتاج إلى تعليق، فكلما «تقلصت قيمة الرسالة الدلالة، زادت قدرتها على الإقناع».. ولذلك كانت السلطة مؤسسة على السكوت لا على الحوار[٦].

ويبقى السيد (صاحب السلطان) - فى الأخير - دائم الحضور والمراقبة لتوزيع الكلام، وتحديد المواطن الصالح، وشكل العملية السياسية والتعامل. حضور القائد رمزيًا فى كل مناسبة يزيد من وزنه، ويجعله أكثر قدرة على السيطرة والاستمرار.

صاحب السلطة لا يمنع أن ينظر إلى أولئك الذين هم أدنى منه على أنهم مجبرون على التوسل إليه وسؤال خاطره فى كل لحظة؛ بمعنى أنهم لا يتعين عليهم وحسب أن يفعلوا ما يأمرهم به، بل عليهم كذلك أن يفكروا كما يريدهم هو أن يفكروا، وفى أغلب الأحيان يكون من الواجب عليهم أن يستبقوا أفكاره استجلابًا لمرضاته..[٧].

وضمن هذا، فإن السلطة تطلب من المواطن «**التمثيل**» الذى فُرض عبر مجرى التاريخ على الأكثرية الساحقة من البشر، ونعنى بهذا «**الأداء العلنى الذى يفرض على أولئك الأشخاص أن يؤدوه..**».

إن «فكرة التمثيل» تكمل فكرة «**المعرض**» فى الظاهرة، لكنها تفرز أيضًا عملية الخطاب المستتر لوصف الخطاب الذى يدور خارج إطار خشبة المسرح؛ أى فيما وراء الرقابة المباشرة التى يمارسها أصحاب السلطة.

وأحيانًا يبرز خطاب يُحدث شرخًا فى سطح الصمت والتوافق فى عملية التمثيل . . إنه خروج على النص[٨] .

إنها أمور من الأهمية بمكان حينما ندرس خطاب السلطة والمجتمع بوصفه نصًا بصدد موضوع المواطنة، والذى يعبر عن الإطار القانونى والسياسى لممارسة حقوق المواطنة وتحمُّل واجباتها على أرض الواقع . . ومفهوم المواطنة يتطلب وجوده إقرار مبادئ، والتزامًا بمؤسسات، وتوظيف أدوات وآليات تضمن تطبيقه على أرض الواقع[٩] . المواطنة - وفق هذا التصور- بنية من المستلزمات والمقومات، وبنية فكرية وقيم، وبنية حقوقية ودستورية وقانونية، وبنية مؤسسية، وكذا بنية تتعلق بالسياسات والممارسات .

وهى من المفاهيم الشاملة، والتى تستدعى غيرها من مفاهيم حقوقية وسياسية . المفهوم بهذا التقدير «مفهوم منظومة» يشير إلى الحقوق الإنسانية الأساسية، والحقوق المدنية والسياسية، فضلاً عن الحقوق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وكذا الحقوق الجماعية، وهى تتعلق بمجالات النشاط الإنسانى كافة (الشخصى والخاص والعام والسياسى)[١٠] . (انظر شكل ٤)

فى هذا السياق الجامع بين الدين والدولة والمواطنة ومصر، تتولد عناصر منهجية تشير إلى القراءة للمجتمع بوصفه نصًا . ضمن هذه الرؤية تحاول دراسة :

ـ تركيب العنوان (مفهوم الدين الشامل، مفهوم الدولة والبحث عن المواطنة المصرية، مفهوم الزحف على الدين وتأميمه) . ( انظر شكل ٥)

**أولاً : الإدراكات ودراسة المواطنة المصرية :**

١ - الزحف على عالم المفاهيم والمدركات .
٢ - الإدراكات المتبادلة والمواطنة المصرية .
٣ - قراءة نص المجتمع فى نصوص أدبية .
٤ - صياغة الإدراكات عبر الذاكرة الحضارية والتراثية .

**ثانيًا : دراسة السلوكيات والسياسات والعلاقات والمواطنة المصرية .**

**ثالثًا : الزحف على المؤسسات السياسية الأساسية والدينية وعمليات التنظيم .**

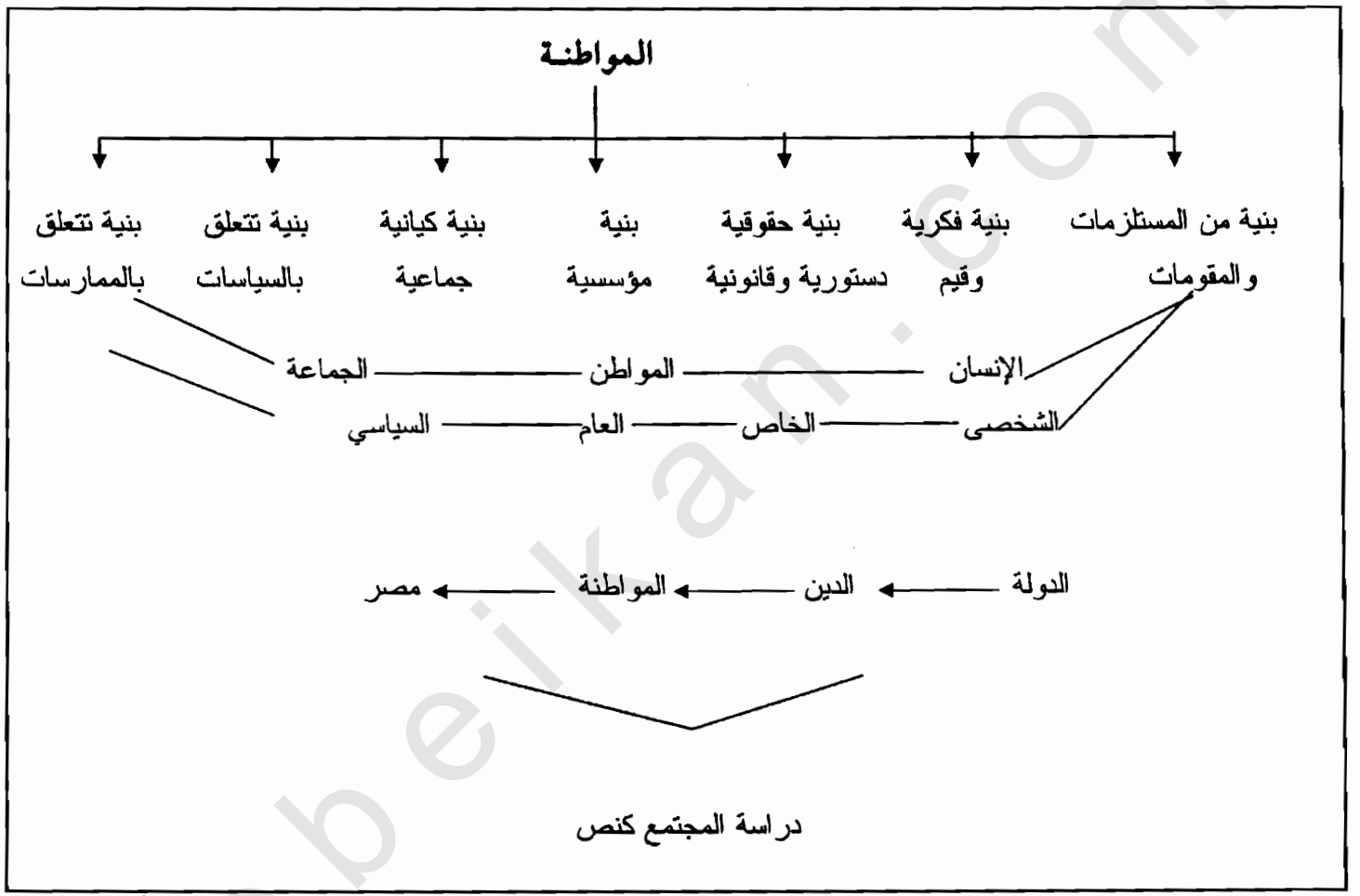


شكل رقم (٤)

obeikan.com

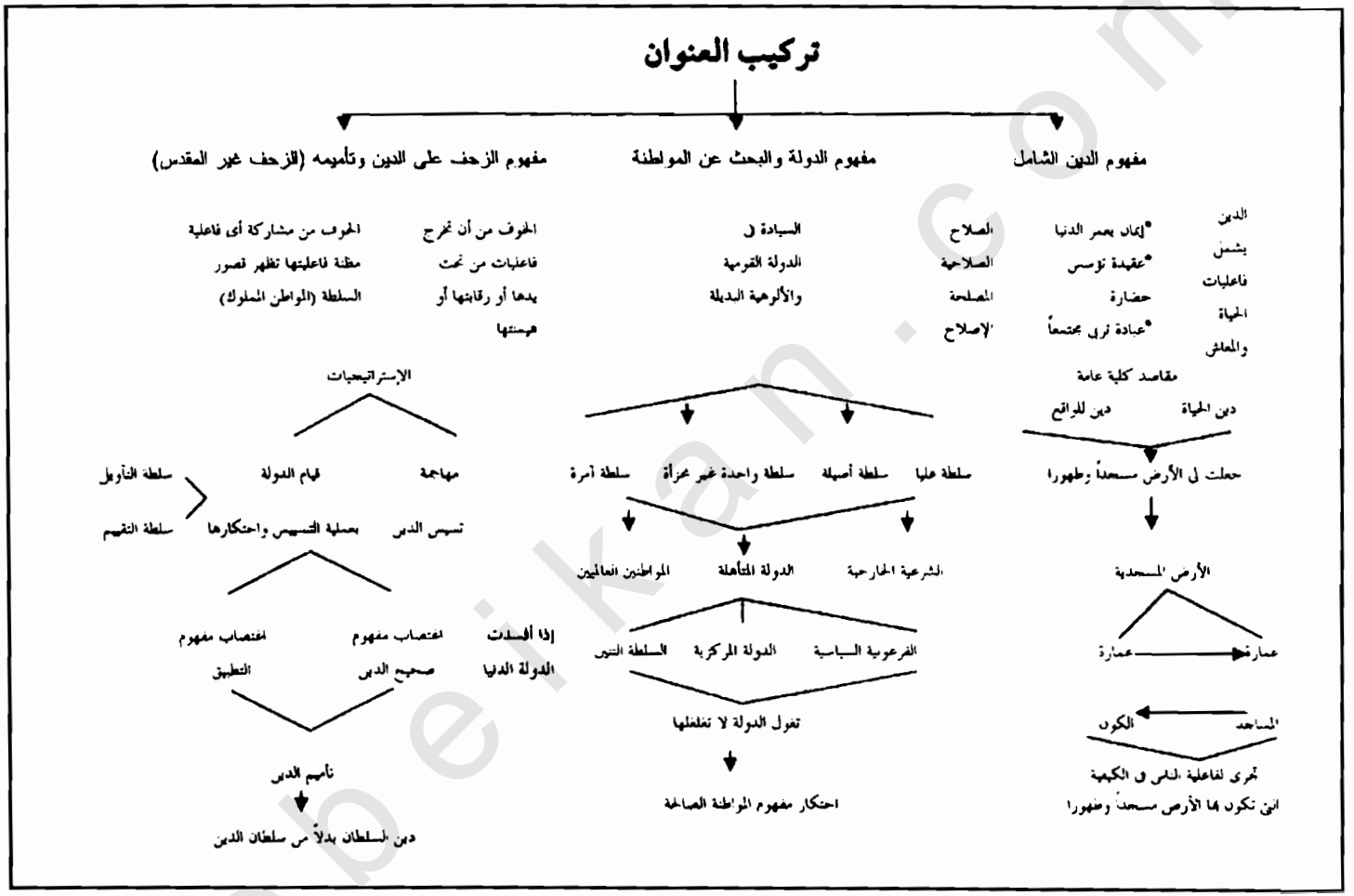
تركيب العنوان
مفهوم الدين الشامل
مفهوم الدولة والبحث عن المواطنة
مفهوم الزحف على الدين وتأميمه (الزحف غير المقدس)
الدين يشمل فاعليات الحياة والمعاش
•إيمان بعمر الدنيا
•عقيدة تؤسس حضارة
•عبادة ترى مجتمعاً
مقاصد كلية عامة
دين الحياة
دين للواقع
جعلت لي الأرض مسجداً وطهورا
الأرض المسجدية
عمارة
عمارة
المساجد
الكون
تجري لفاعلية الناس في الكيفية التي تكون بها الأرض مسجداً وطهورا
الصلاح
الصلاحية
المصلحة
الإصلاح
السيادة في الدولة القومية والألوهية البديلة
سلطة عليا
سلطة أصيلة
سلطة واحدة غير مجزأة
سلطة أمرة
الشرعية الخارجية
الدولة المتأهلة
المواطنين العالميين
الفرعونية السياسية
الدولة المركزية
السلطة التنين
تعول الدولة لا تغلغلها
احتكار مفهوم المواطنة الصالحة
الخوف من أن تخرج فاعليات من تحت يدها أو رقابتها أو هيمنتها
الخوف من مشاركة أي فاعلية مقننة فاعليتها تظهر قصور السلطة (المواطن المملوك)
الإستراتيجيات
مهاجمة تسيس الدين
قيام الدولة بعملية التسييس واحتكارها
سلطة التأويل
سلطة التقييم
إذا أفسدت الدولة الدنيا
اغتصاب مفهوم صحيح الدين
اغتصاب مفهوم التطبيق
تأميم الدين
دين السلطان بدلاً من سلطان الدين

شكل رقم (٥)